كلمة ممثل "حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين" في لبنان

الحاج/ أبو عماد الرفاعي

في مؤتمر

(الإسلاميون: نظام الحكم وفلسطين بعد الثورات العربية)

المقام في بيروت بتاريخ 12 – 13 أيلول 2012

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة والأخوات،

لعلّ السؤال عن موقف حكومات ما بعد الثورات العربية من فلسطين، وموقع القضية الفلسطينية فيها، هو السؤال الأكثر إلحاحاً وحضوراً على أجندة نتائج الثورات العربية والمتغيرات والتداعيات التي أحدثتها. وهنا، فإننا عن قصد نميّز بين الثورات العربية وبين الحكومات التي نتجت بعدها، ليس من منطلق التشكيك في الشرعية الثورية لحكومات ما بعد الثورات؛ فنحن على ثقة تامة بأن فلسطين تشكل ركناً لا ينفصم من عقيدة أبناء هذه الأمة، ورمزاً من رموز حضارتنا، ومكوّناً أساسياً من مكوّنات هويتنا، وأساساً ثابتاً من أسس نظرة أبناء هذه الأمة الى مستقبلها.

لذلك، فإن الإشكالية الحقيقية لا تتعلق بموقع فلسطين في الثورات العربية، ولا عن موقف الشعوب العربية وثوراتها من قضية فلسطين، بل عن قدرة الحكومات والأنظمة التي أنتجتها الثورات على تحقيق ما تصبو إليه الشعوب العربية والإسلامية تجاه القضية الفلسطينية، وعن قدرة هذه الحكومات على تحويل التطلعات والآمال الشعبية الى واقع ملموس، يتجلى في تحرير فلسطين، وإنقاذ المسجد الأقصى، وتدمير الكيان الإسرائيلي المصطنع، والمزروع في قلب أمتنا.

أيها الحضور الكريم،

لا يستطيع أحد أن ينكر أن حكومات ما بعد الثورات العربية قد ورثت واقعاً مأزوماً على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، من أنظمة سرى الفساد في كل أوصالها، ومارست القهر والإذلال وسياسة التفقير والمحسوبيات، حتى وصلت مجتمعاتنا العربية الى الحضيض على مستوى التنمية والتعليم والحرية والأمل في المستقبل. وكان

لإطلاق تسمية "ثورة الكرامة" على الثورات العربية الأولى في مصر وتونس دلالاتها العميقة التي تعكس عمق الأزمة النفسية والوجودية التي عاناها المواطن العربي في ظل الحكومات والأنظمة السابقة.

ولا نظنّ أنّ أحداً يختلف حول توصيف أو تشخيص الحالة التي أدّت الى نشوء الثورات. لكنّ السؤال الذي ينبغي أن لا يغيب عن بال أحد هو: ما الوظيفة التي يقوم بها الكيان الصهيوني في فساد الأنظمة؟ ألا يشكل وجود الكيان الصهيوني على أرض فلسطين السبب الرئيس في ما أصاب المجتمعات العربية من انهيار ودمار في مقدراتها، وأعاقة نهضتها، وإضاعة ثرواتها، ونهب خيراتها، وهو ما أبقاها مجزأة وتحت مرمى النيران والحروب، طوال العقود الستين الماضية؟!

نطرح هذا التساؤل لأننا نستشعر وجود اتجاه يحاول الفصل بين مسألتي النهضة والتنمية وبناء الدولة من جهة، وتحرير فلسطين ومقاومة المشروع الصهيوني، من جهة ثانية. وهذا الاتجاه يريد أن يجعل من قضية فلسطين مسألة مؤجلة الى ما بعد تحقيق التنمية والنهضة في الدول العربية. ويميل أصحاب هذا الاتجاه، في أحسن الظن، الى مراعاة ومسايرة الوضع القائم، على قاعدة أن تحقيق التنمية والنهضة، وتمكين السلطة، هو الذي سيؤدي في نهاية المطاف الى توفير الشروط اللازمة لتحرير فلسطين.

غير أن أصحاب هذا الاتجاه يغيب عن بالهم أمران رئيسان، لا يمكن التغاضي عنهما. الأمر الأول: هو أن عامل الوقت هنا ضاغط جداً، حيث يعمد العدو الصهيوني الى استغلال الوقت لإيجاد وقائع جديدة على الأرض، تتمثل بتسريع وتيرة الاستيطان، وتهويد المقدسات، وعلى رأسها المسجد الأقصى والمقدسات المسيحية، وسرقة وتزوير التاريخ والآثار العربية والإسلامية، ومصادرة الأراضي والممتلكات، ونهب الثروات الطبيعية، وتهجير الفلسطينيين من قراهم ومدنهم، وطرد المقدسيين من مدينتهم، والتآمر على الفلسطينيين الذين صمدوا في أرضهم المحتلة عام 1948، ومواصلة

حصار غزة، وتجويع أهلها، والإبقاء على آلاف الأسرى، ومن بينهم أطفال ونساء وشيوخ ومرضى، في سجون الاحتلال لعشرات السنين، دون أمل قريب بإطلاق سراحهم، ومواصلة عدوانه الممنهج ضد الوجود الفلسطيني العربي والإسلامي فوق أرض فلسطين. كيف يمكن إيقاف الآلة الصهيونية الإجرامية خلال الوقت المطلوب للتنمية؟ وما هو الثمن السياسي والإنساني الذي سيدفعه الشعب الفلسطيني مقابل الوقت المطلوب؟! ولا سيما في ظل ما يشاع عن مشاريع صهيونية، تستهدف فصل قطاع غزة عن فلسطين، وترحيل الفلسطينيين الصامدين في المناطق المحتلة عام 1948، والقضاء على حق اللاجئين في العودة الى أرضهم وبيوتهم وقراهم ومدنهم التي أخرجوا منها، والضغط على الحكومات المستضيفة لتوطينهم، وإعداد مشاريع نقلهم وطردهم الى أماكن جديدة..

هذه الممارسات الصهيونية العدوانية المستمرة بحق الشعب الفلسطيني، إضافة الى التهديد المستمر للعدو الصهيوني للعديد من دول المنطقة، ومحاولات فرض شروطه حتى على الأمور الداخلية لبعض الدول، تدلل بوضوح أنه في ظل وجود هذا الكيان، فلا مكان للتنمية ولا للعدالة، ولا يمكن قيام حكم عربي مستقر.. وأن التبعية للغرب ستبقى موجودة، ما لم يتم وضع خطة ورؤية استراتيجية لمواجهة هذا العدو.

أما الأمر الثاني فيتعلق بمفهوم النهضة والتنمية ذاتها. فما هي الأسس التي ستقوم عليها هذه النهضة؟ هل ستقوم على الأسس الاقتصادية والاجتماعية ذاتها التي كانت وراء حالة التدهور والإفقار والتبعية، على قاعدة الاندماج في النظام الاقتصادي العالمي، والرضوخ لشروط صندوق النقد والبنك الدوليين، ومعاهدات التجارة العالمية، التي تجعل من مجتمعاتنا مجرد تابع هامشي، لا يستطيع إلا الرضوخ لمتطلبات هذا النظام الاقتصادي العالمي ذاته الذي أوجد الكيان الصهيوني في قلب أمتنا كحارس وضامن لعمليات النهب والسطو المسلح التي تقوم بها الشركات والحكومات الغربية لثروات شعوبنا ومنطقتنا؟! وهل يمكن تحقيق نهضة حقيقية قادرة على

مواجهة المشروع الصهيوني، وبالضرورة مواجهة الغرب الاستعماري الذي يقف وراءه، عبر اتباع الوصفات الغربية، التي كانت سبباً مباشراً وراء حالة الضعف والانهيار الاقتصادي والتنموي، والتخلف العلمي والتكنولوجي، لشعوب أمتنا؟! ومن ثم، ما مقدار مثل هذا النوع من التنمية على تحقيق نهضة حقيقية مقاومة توصلنا في النهاية الى تحرير فلسطين، أو حتى الى تحقيق انتعاش واستقرار اجتماعي لشعوبنا، في الوقت الذي تبحث فيه الولايات المتحدة الأمريكية وباقي الدول الغربية عن أيّما مصدر لمواجهة أزماتها الاقتصادية والاجتماعية ؟!

ألا تضع تلك المؤسسات العالمية شروطاً سياسية واقتصادية واجتماعية، أبرزها وعلى رأسها، الاعتراف بالكيان الصهيوني، وتطبيع العلاقات معه على كل الصعد والمستويات، وفرض شروط لصالحه، مقابل منح فتات قليلة لا تسد رمقاً ولا تسكت جوعاً؟! أوليست الإدارة الأمريكية – وهي الضامنة لوجود الكيان الإسرائيلي – هي ذاتها من يملك مفاتيح الاقتصاد العالمي والتكنولوجيا العلمية، وهي الآمر الناهي في كافة المؤسسات والمنظمات الاقتصادية والمالية العالمية، التي يتطلع البعض الى تحقيق النهضة عن طريقها؟!

أيها الحضور الكريم،

نحن نؤمن أن تحرير فلسطين وتحقيق التنمية والنهضة أمران لا ينفصلان، ولا يمكن تقديم أحدهما على الآخر. فتحرير فلسطين والمسجد الأقصى المبارك يحتاج الى توظيف كافة جهود الأمة العربية والإسلامية، وهذا أمر يدخل في صلب عملية التنمية والنهضة. لكن علينا أن ندرك هنا أن تحقيق التنمية والنهضة والوحدة العربية والإسلامية لا يمكن إلا وأن يصطدم بواقع وجود الكيان الصهيوني، الذي لعب منذ إقامته – ولا يزال يلعب – دور حامي التجزئة والتفتيت والتقسيم في منطقتنا، ويمنع قيام وحدة حقيقية، ويسهل

للشركات والحكومات الغربية مواصلة نهب ثرواتنا وخيراتنا، التي تذهب لغير صالح أبناء أمتنا وشعوبنا.

إن المزاوجة بين التنمية والتحرير ليست بالأمر المستحيل، ولا الصعب، بل يحتاج الى إرادة حرة صلبة وقرار جدي وجريء وفاعل، يقوم على أساسين متلازمين:

الأساس الأول: تحقيق نهضة حقيقية مقاومة، تقوم على اقتصاد وطني وقومي حقيقي غير مرتبط بالغرب، يضمن كرامة المواطن، ويؤمن له رزقه، بما يكفل له حريته، ويبعده عن تسلط وقهر الاقتصاد الغربي، وتحكم المؤسسات الدولية بمستقبله ومستقبل الأجيال القادمة.. نهضة أساسها الاستقلالية والاكتفاء الذاتي في الزراعة والصناعة، وبتوجيه التعليم والاستثمار نحو هذا الهدف. فقد أثبتت تجربة المقاومين من أبناء أمتنا بأن الولايات المتحدة قد هزمت في العراق وأفغانستان، وكذلك انهزم العدو الصهيوني في لبنان وفلسطين، بدون دبابات ولا طائرات ولا صواريخ عابرة للقارات، ولا حتى أجهزة رصد متقدمة.. بل عن طريق مجتمع حر مقاوم يحتضن المقاومة ويجد قوت يومه. فقيام النهضة والتنمية على الأسس الموضوعية للثروات الطبيعية، وعلى رأسها الزراعة، بما يكفل تحقيق الاكتفاء الذاتي وحرية القرار الوطني والقومي، هو ما يكفل قيام مجتمع حر ومقاوم، يؤدي دوره في مواجهة المشاريع الاستعمارية والمخططات الصهيونية.

وأما الأساس الثاني، وبانتظار أن تحقق النهضة والتنمية هدفها في قيام مجتمع مقاوم ومستقل، وقادر على المواجهة، فإن المطلوب وبشكل ملح وعاجل، هو دعم المقاومة الفلسطينية في وجه العدو الصهيوني، ودعم صمود الشعب الفلسطيني في الداخل وفي مخيمات اللجوء. الشعب الفلسطيني لا يستطيع بمفرده فرض الهزيمة على المشروع الصهيوني – الغربي، ولكنه قادر على إشغال هذا العدو، بما يمنعه من توسيع عدوانه ضد الشعوب

العربية، أو على الأقل جعل ثمن أي عدوان مرتفع جداً، وبالتالي حماية عملية النهضة والتنمية العربية والإسلامية.

إن المزاوجة بين عملية نهضة مقاومة حقيقية ودعم المقاومة الفلسطينية هو ما يمكّن الحكومات العربية من تحقيق تطلعات شعوبها في النهضة وتحرير فلسطين على حد سواء.

وبما أننا نتحدث عن حركات إسلامية في موقع الحكم، فإن لنا في تجربة الرسول، صلى الله عليه وسلم، أفضل قدوة ومثال، حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم بادر الى مواجهة قريش وإرسال السرايا لمقاتلتها منذ الأشهر الأولى التي وطأت فيها قدماه الطاهرتان أرض المدينة المنورة. وكذلك في تجربة القائد صلاح الدين الأيوبي، الذي لم تعقه عملية التنمية في مصر والسودان، عن مناوشة الصليبيين في بيت المقدس. والسبب وراء ذلك بسيط ومباشر: إن أي مجتمع لا يمكن أن يحقق نهضته السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية ما لم يحدد له هدفاً مركزياً يوظف كل طاقاته باتجاهه. فالنهضة التي لا تصوب بوصلتها نحو عدوها الخارجي، تغرق في تفاصيل الخلافات الداخلية، وتكون أكثر طواعية للابتزاز، ولا تستطيع بالتالي أن تساعد مجتمعها على تحديد ملامح هويته ومهمته وأهدافه.

ولقد أثبتت تجارب المقاومة في أمتنا العربية والإسلامية أن شعوبنا قادرة، وهي على استعداد لتحمل الجوع والآلام في سبيل قضاياها الكبرى والمصيرية.. وأن ما قامت الثورات العربية لأجله هو تحقيق أهداف شعوبنا في الكرامة ورفض التبعية والإذلال الذي مارسته الأنظمة السابقة بحكم علاقاتها الغربية.. إن شعار "إسقاط النظام" الذي رفعته الثورات العربية لا يمكن اختزاله بحال من الأحوال الى تغيير أشخاص أو تثبيت حاكم مكان آخر، بل تغيير الواقع بكافة علاقاته وسياقاته التي جلبت العار والتخلف لشعوب أمتنا.. والمطلوب اليوم بالتحديد هو تحقيق الأهداف والآمال الكبرى لهذه الشعوب، وفي مقدمتها، تحقيق كرامتها في وجه استقواء العدو

الصهيوني عليها، وتحقيق استقلالها في وجه النهب والسيطرة الذي يمارسه الغرب عبر مؤسساته الدولية والاقتصادية.. ودون تحقيق هذه الأهداف الكبرى، وما تعنيه حكماً من مواجهة للعدو الصهيوني ومقاومة الاستعمار الغربي المباشر وغير المباشر، فلا شرعية ثورية لأي حكم أو حكومة تقوم باسم الثورات العربية.

أيها الكرام،

لم يكن عبثاً أن جعل الله مسرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم القبلة الأولى. وليس عبثاً أن يجعل الله سبحانه وتعالى من دخول المسجد الأقصى علامة ودليلا على انتصار الإصلاح على الفساد الذي يقوده بنو إسرائيل.. إن لذلك أبعاداً تتعدى الصلاة ورمزية المكان، لتكون محفزاً وهادياً على أن كل صلاح وكل هداية وكل نهضة، لا تتحقق الا عبر هذا النهج وهذا السبيل.. ففلسطين يؤتى إليها ولا تأتي الى أحد، وهي معيار صواب أو خطأ أي نهج أو مقصد.

إننا في حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين ندرك تماماً الدور الذي علينا القيام به تجاه شعبنا وأمتنا في هذه المرحلة الدقيقة والحساسة من التغيرات التي تجري في منطقتنا، وأنه علينا مواصلة الجهاد والمقاومة ضد العدو الصهيوني وإشغاله الى أن تتمكن الأمة من تفعيل طاقاتها وقدراتها في مشروع تحرير كامل. نحن نتطلع بكل الثقة الى الثورات العربية ليس في دعم المقاومة فحسب، وإنما أيضاً في إعداد العدة لكي تقوم الأمة بدورها وواجبها في تحرير فلسطين.

وإننا نرى أنه على الحكومات العربية بعد الثورات أن تلعب دوراً أساسياً في إنهاء حالة الانقسام الفلسطيني الداخلي، التي هي في جزء كبير منها انعكاس لحالة الانقسام والتشظي العربي، والذي من المفترض أن يتغير

في مرحلة ما بعد الثورات، التي عليها أن تعيد تأكيد التزامها بدعم مشروع المقاومة.

الإخوة والأخوات،

أشكر سعة صدوركم، وأتمنى أن يثمر مؤتمرنا هذا عن توصيات نستطيع من خلالها حفظ أمتنا وكرامتها، وتحقيق نهضتها وحريتها وعزتها، وحقن دماء المسلمين والمظلومين في كل مكان، وإعادة توجيه البوصلة باتجاه فلسطين، كل فلسطين، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.